الفصل الثاني عشر

العلماء

فى القرن الثالث الهجرى صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفى قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية ، أدباء من طراز جديد ، يلمّون بكل شىء ويشبهون فى عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون فى جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرّقون بين أنفسهم و بين الأدباء ، حتى قال ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحداً ؛ ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع فى العلوم[1] » .

وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعةٌ من العلوم الدنيوية ؛ ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمى وأسلوب علمى سوى الفلسفة وعلم الكلام ؛ ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص . وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قبلُ من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية ؛ كما أنهم أصبحوا لا يغالون فى حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة فى تدوينها . وقد أوجزوا مقدماتِ كتبهم إيجازا كبيراً ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه صاحب الفهرست فى خطبة كتابه عام ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م : ربّ يسر برحمتك ! النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل

---

(١) المخلاة للعاملى المتوفى عام ١٠٠٣ هـ طبعة مصر ص ٢٢٨ .

في العبارات ؛ فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا ، إذ كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله ؛ فنقول ، وبالله نستعين وإياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه وعباده المخلصين في طاعته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ... »

ومن التغيرات الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين ، وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء ، والعلماء على الحقيقة . وكانت غالبية طلبة العلم المتكسبين يقصدون الفقهاء ؛ لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات ، فكان لا بد لمن يريد تولى القضاء والخطابة في المساجد من التتلمذ عليهم . يقول الجاحظ في نص مشهور له : « وقد تجدُ الرجلَ يطلب الآثارَ وتأويلَ القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما ، وهو لا يُعدُّ فقيهاً ، ولا يُجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن يُنظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كُتُب الشروط في مقدار سنة سنتين ، حتى تمرّ ببابه فتظن أنه من بعض العمال ؛ وبالحرىّ ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان[1] » .

وكان نهوضُ علم الكلام بعد أن تخلص من قيود عز الفقه ، وكذلك ظهورُ الأفكار الجديدة في ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير ؛ يقول المطهر المقدسى حوالى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م : « ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجرّد له بكليته

---

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، وانظر مثلا Goldziher, Muhamm. Studien II, 233. ويحكى أن الجوينى قال يوما للغزالى : يا فقيه ، فرأى في وجهه التغير ، كأنه استثقل هذه اللفظة على نفسه (طبقات السبكى ٣ ص ٢٠٩)

ومتوفر عليه بأبديّته ، مُمانٍ له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية ، مقترنا به التأييد والتسديد ، قد شمّر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرّجا و يتلقاه متطرفا ؛ لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء فى الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ونبذ المحاكة والمحاجة ، و إجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأنى بلطيف التأنى ، وتوفية النظار حقه من التمييز بين المشتبه والمتّضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ المعقول ، فعند ذلك إصابةُ المراد ومصادفة المراد »[1] .

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتبا، وكان يتميز عن العلماء فى لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا فى خراسان يظهرون متطلّسين متحنّكين ؛ وكانت فارس مركزَ الكتابِ ، وكانوا فى مدينة شيراز يُرفعون على العلماء[2] . ولكن خراسان كانت جنة العلماء ، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما فى سائر البلاد . ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان ، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان يُخرِج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعهم ، وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم ، حتى وصلوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات وهى تقع على رءوس الناس ؛ وخرج إليه صوفيات البلد بمغازلهن وألقينها إليه ، وكان قصدهن أن

---

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ١ ص ٤

(٢) المقدسى ص ٤٤٠

يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه[1] .

وكان في كل جامع كبير مكتبة ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع[2] . ويقال : إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوى كتب يزدجرد ، لأنه حملها إليها وتركها[3] . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولعٌ شديد بالكتب . فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ؛ وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب . أما في مصر فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) خزانة كتب كبيرة ؛ وقد ذُكر عنده كتابُ العين للخليل بن أحمد ، فأمر خُزّان دفاتره ، فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة ، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد ؛ وحمل إليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر العزيز الخزّان ، فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه . وذُكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد ، فأخرج من الخزانة

(١) طبقات السبكى ج ٣ ص ٩١ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ فى ترجمة أبى نصر المنازى .

(٣) كتاب بغداد لطيفور ص ١٠٧ ؛ ولقد ترنّم ياقوت بذكرى مكاتب مرو مع تأخر الزمن به . وكان قد مضى بمرو ثلاث سنين ، فتغنى بأيامه فيها دهراً جميلا . وكان بها على عهده اثنا عشرة خزانة ، بإحداها نحو من اثنى عشر ألف مجلد ؛ يقول ياقوت « وكانت (الخزائن) سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن ، تكون قيمتها مائتى دينار ؛ فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد » (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٩ — ٥١٠ من الطبعة الأوربية) .

مائة نسخة منها[١] . وقد أراد المتأخرون أن يقدّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة ، فيقول المقريزى إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ويذكر عن ابن أبى واصل أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد . وقال ابن الطوير إن خزانة الكتب كانت تحتوى على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب[٢] .

ولنذكر ما كانت فى بعض خزائن الكتب فى الغرب على سبيل المقارنة : كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة كُنستانز فى القرن التاسع الميلادى ثلاثمائة وستة وخمسون كتابا ، وفى مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما يزيد على المائة بقليل ، وفى خزانة كتب الكاتدرائية فى مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتابا فقط[٣] . وقد أطلع رئيسُ الفراشين المقدسىّ على خزانة الكتب التى كانت فى دار عضد الدولة ؛ والمقدسى يصفها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ؛ ولم يبق كتاب صُنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها . وهى أزج طويل فى صفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ،

---

(١) المقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٠٨) نقلا عن المسبّحى المؤرخ الثقة (توفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) الذى كان معاصراً للعزيز بالله ... على أن الأرقام تختلف بين مخطوط وآخر ، فيقول ابن الطوير إن من عجائب خزانة العزيز بالله أنه كان بها ألف وستمائة نسخة من تاريخ الطبرى ، على أن ابن الطوير متأخر (المقريزى ج ١ ص ٤٠٩) .

(٢) المقريزى (الخطط) ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) Th. Gottlieb Ueber Mittelalterliche Bibliotheken, S. 22, 23, 87.

والدفاتر منضّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه[١] » .

وكان أكبر عشاق الكتب المولعين بها ولعاً شديداً فى القرن الثالث الهجرى الجاحظ ، وكثيراً ما يذكر بذلك ؛ والفتح بن خاقان ؛ وإسماعيل بن إسحاق القاضى .

فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ؛ وقد حكى بعض المؤرخين المتأخرين أنه مات فى حب الكتب ، فقد روى أنه مات بوقوع مجلدات عليه ؛ وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس عليها ، وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته[٢] .

وأما الفتح بن خاقان ، وكان من كبار رجال دار الخلافة ، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمّه أو خفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى عوده إليه .

وأما إسماعيل بن إسحاق فإنى ما دخلت عليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلّب كتباً أو ينفضها[٣] » .

وفى سنة ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م توفى السجستانى المحدّث ، وكان له كمّ واسع وكمّ ضيق ، فقيل له فى ذلك ، فقال : الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه[٤] .

---

(١) المقدسى ص ٤٤٩ .

(٢) تاريخ أبى الفدا تحت سنة ٢٥٥ هـ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١١٦ — ١١٧ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٧ ؛ غرر الفوائد للمرتضى طبعة طهران ١٢٧٢ هـ .

(٤) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٧٩ .

وقد عمل علي بن يحيى المنجم ، وكان ممن جالس الخلفاء ، حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى خزانة كتب عظيمة فى ضيعته ، وسماها خزانة الحكمة ؛ وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ؛ والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ؛ فوُصفت له الخزانة ، فمضى ورآها ، وهاله أمرُها ؛ « فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلَّم فيها علم النجوم ، وأغرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً[1] » .

وفى سنة ٢٨٢ هـ — ٨٨٥ م توفى أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الضياع فيها ، ويقال إنه أنفق فى شراء كتبه ثلثمائة ألف درهم[2] .

وفى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م توفى محمد بن نصر الحاجب وخلَّف كتباً بأكثر من ألفى دينار[3] .

وفى سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م صودر حبشى بن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما أُخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد[4] .

وفى سنة ٣٥٥ هـ — ٩٦٥ م نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبى الفضل ابن العميد بالرىّ ؛ فلما انصرف إلى داره ليلا لم يجد فيها ما يجلس عليه ،

---

(١) الإرشاد ج ٥ ص ٤٦٢ .

(٢) تاريخ أصفهان لأبى نعيم مخطوط ليدن ص ٥١ ب .

(٣) غريب ص ١٢١ نقلا عن الصولى ؛ وكان للصولى هذا مكتبة كبيرة ؛ انظر المنتظم لابن الجوزى ص ٧٩ ب .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣١٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠١

ولا كوزاً واحد يشرب فيه ؛ وكان ابن مسكويه المؤرخ فى ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد ؛ وهو يقص علينا القصة ، فيقول : « فأنفذ إليه أبو حزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره ، ولم يكن شىء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ، يُحمل على مائة وقر ، فلما رآنى سألنى عنها فقلت : هى بحالها لم تمسسها يد ، فسُرّى عنه ، وقال : أشهد أنك ميمون النقيبة ؛ أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزانة هى التى لا عوض منها ؛ ورأيته قد أسفر وجهه ، وقال : باكر بها غداً إلى الموضع الفلانى ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله[1] » .

وقد استدعى السلطان نوح بن منصور السامانى الصاحب بن عبّاد (المتوفى ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) ليوليه وزارته ، فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات ، ولما ورد السلطان محمود الرى استخرج من بيت كتب الصاحب كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه[2] ، وكذلك لم يجد البيرونى من قبل ولا الفردوسى من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً .

وكان القاضى أبو المطرف (المتوفى عام ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م) قاضى الجماعة بقرطبة ؛ وقد جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً ؛ وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه ويبالغ فى ثمنه ؛ وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة ، وإذا سأله أحدٌ ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٥ .

ودفعه إلى المستعير . ويحكى أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه عاماً كاملا فى مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار[١] .

ولما أراد البرقانى العالم البغدادى المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال ، وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله[٢] . وقد دخل أبو يوسف القزوينى المنزلى (المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب[٣] .

وقد أظهر المانوية من قبل عناية كبيرة بزخرفة كتبهم ، ففى سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أحرقت على باب العامة ببغداد صورةُ مانى ، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب ، وكان له قدر[٤] . وقد قلّد أصحابُ الحلاج الذى قتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م المانوية فى زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطّن بالديباج والحرير ، ويجلّد بالأدم الجيد[٥] .

وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم مزخرفة ؛ وقد وصل الينا من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية ؛ ففى سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٧ م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضى ببغداد ، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالعربية بالفضة[٦] . وبعد ذلك ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتابٌ من

---

(١) كتاب الصلة فى تاريخ علماء الأندلس لابن بشكوال طبعة مجريط ١٨٨٢ ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) أنظر Wüstenfeld, AOOW, 37, Nr. 335 .

(٣) طبقات السبكى ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٤) المنتظم ص ١٢٣ .

(٥) غريب ص ٩٠ نقلا عن ابن مسكويه .

(٦) المنتظم ص ١٥٩ .

صاحب القسطنطينية ، وكان في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح [عليه السلام] وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج[1] .

وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب[2] .

ولما تولى قاضي القضاة عبد الجبار منصبه ، كان الوزير ابن عباد المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعمائة سطر كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة ؛ وقد أهدى هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب المجودين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبه بالخضرة ، وإعرابه بالزرقة ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد ، وما يكتب في التعازي والتهاني[3] . وكان أكثر ما يعنى به عشاق الكتب ، الكتب التي كتبها كبار الخطاطين والتي لأصحابها في النسخ أصل منسوب .

---

(١) نفح الطيب للمقري طبعة دوزي ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) وقد أطلع السكري الصولي على هذه الأشعار ؛ انظر كتاب الديارات للشابشتي ص ٣٩ ب .

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٣٠ .

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها ؛ فيحكى عن أبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م أنه أسس داراً للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان معسراً ، أعطاه ورَقاً وورقا ؛ وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره ، ثم يملى حكاياتٍ مستطابة وطرفا من الفقه وما يتعلق به[١] .

وقد عمل القاضى ابن حبّان (المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م) فى مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق ؛ ولم تكن الكتب تُعار خارج الخزانة[٢] .

وقد أنشأ أبو على بن سوّار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) دار كتب فى مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس ، كما بنى داراً أخرى بالبصرة ، وجعل فيهما إجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيهما ، وكان فى الأولى منهما أبداً شيخٌ يُدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة[٣] .

وفى سنة ٣٨٣ هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بنى بويه داراً للعلم فى الكرخ غربى بغداد ، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ؛ وكان بها

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) Wüstenfeld AOGW. 37. .

(٣) المقدسى ص ٤١٣ وكتاب الفهرست ص ١٣٩ .

مائة نسخة من القرآن بأيدى أحسن النساخ ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التى كان يملكها رجال مشهورون ؛ وردّ النظر فى أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة[1] .

وكذلك اتخذ الشريف الرضى (المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم ، وفتحها لطلبة العلم ، وعيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه[2] .

ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ؛ فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة ، وهى خزانة كتب ليس غير ؛ أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها .

وقد أنشئت فى مصر أيضاً مثل هذه الدور ؛ فقد اشترى العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى سنة ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م داراً إلى جانب الجامع الأزهر ، وجعلها لخمس وثلاثين من العلماء . وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد فى كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التى هى أكبر معهد علمى إسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى . وكان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّبهم ؛ وكان يُجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار فى

---

(١) المنتظم ص ١٣٥ ا ، ورسائل أبى العلاء ص ٥٢ ، ومقدمة مرجليوث لهذه الرسائل ص ٢٤ ؛ وقد أحرقت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤٦ — ٢٤٧) . وعلى أن الكتب التى كانت من قبل فى حوزة رجال مشهورين لها شأن عام لأنها تحفظ نوعاً من السند الصحيح لما تحويه والقراراً به ؛ ولذلك يعنى القارئ بكتابة اسمه على غطاء الكتاب . ويحدثنا ياقوت (الإرشاد ج ٦ ص ٣٥٩) عن خازن هذه الدار ، المتوفى عام ٥١٠ هـ ، كيف كانت الكتب تهلك بأكل البراغيث لها وعيثهم فيها .

(٢) ديوان الشريف طبعة بيروت ص ٣ من طبعة سنة ١٣٠٧ هـ .

كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين[١] . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقبة بدار العلم[٢] بالقاهرة ، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائرُ الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خُزّان وبوّابون ، ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم ؛ ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان[٣] . وكان في هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق ؛ وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار ، فكان ينفق عليها في كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العين المغربي . فمنها :

الورق	٩٠ ديناراً
الخازن	٤٨ »
الفراشين	١٥ »
الناظرين في الورق والحبر والأقلام	١٢ »
لرمّة الكتب	١٢ »
ثمن الماء	١٢ »
ثمن الحصر العبدانى	١٠ دنانير
ثمن لبود الفرش في الشتاء	٥ »
ثمن طنافس في الشتاء	٤ »
لرمة الستارة	١ دينار

وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ؛ لأنه اجتمع

(١) ذكرى ذلك معاصره وشريكه في الوطن يحيى بن سعيد ص ١٠٨ ا .
(٢) تسمى أيضاً دار الحكمة ، المقريزى ج ١ ص ٤٥٨ .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ ا .

بها فريق من العلماء ، فاستفسد بعضهم عقولَ جماعة ، وأخرجهم عن الصواب[١] .

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى فى المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس . وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة فى المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن ؛ وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء : دوِّروا وجوهكم إلى المجلس[٢] .

وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلسا من مجالس العلم[٣] .

وكان جامع المنصور ببغداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز للتعليم فى المملكة الإسلامية . ويُحكى أن الخطيب البغدادى[٤] لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات أخذاً بقول النبى صلى الله عليه وسلم : ماء زمزم لما شُرب له ؛ فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى .

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م) ، وكان

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٢) المقدسى ص ٢٠٥ — . وفى سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م برد الهواء برداً شديداً وسقط ببغداد ثلج كثير ، وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبر الناس عليها وجلس المحدث المعروف بأبى زكرة فى وسط دجلة على الجمد ، وأملى الحديث (المنتظم لابن الجوزى ص ١٣١) .

(٣) المقدسى ص ٢٠٥ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٦ .

من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى ، إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يُغير محلّه منها[١] .

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، وكان ذلك طبيعياً ؛ لأن الفقهاء يعلمون العلم الذى يؤهل أصحابه لتولّى مناصب يعيشون منها ، كما تقدم القول ؛ ولكن لو قارنا عدد التلاميذ فى ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنسبة لما نراه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ ؛ فقد كان أبو حامد بن محمد الاسفراييني المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ؛ إمامَ أصحاب الشافعى ، حتى قيل إنه أفقه وأنظر منه ؛ وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين الثلاثمائة وسبعمائة فقيه[٢] . وكان أبو الطيّب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور وهى مركز علماء خراسان ؛ ويقال إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م[٣] . وكان يسند بين يدى أحد أصحاب الجوينى « الإمام الفرد » (المتوفى عام ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) فى كل يوم ثلثمائة من الأئمة والطلبة[٤] ؛ هذا على حين أننا نجد اليوم فى كشمير مثلا ؛ مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً ، أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون دروس أكبر العلماء فيها[٥] .

وكان عدد الطلاب يُعرف بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم والتى كانت

---

(١) الإرشاد ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) Wüstenfeld, AOGW 37. Nr. 287. ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٣ يذكر أربعمائة طالب .

(٣) التهذيب للنووى طبعة فستنفلد ص ٣٠٧ وطبقات السبكى ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٤) السبكى ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) Hartmann, Chinesisch-Turkestan, S. 45.

أم عتاد الطالب[1] . ولما قدم محمد بن جرير الطبري بغداد قصده الحنابلة ، فسألوه عن أحمد بن حنبل ، وعن حديث الجلوس على العرش فقال : أما أحمد فلا يُعدّ خلافه ؛ فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين[2] . وكان إذا مات إمام كسر تلاميذه المحابر والأقلام ، وطافوا فى البلد نائحين مبالغين فى الصياح ؛ فلما مات الجوينى المتقدم الذكر ، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً ؛ كسّر منبره ، واشتركت نيسابور كلها فى حزن العلماء عليه ، « فلم تفتح الأبواب فى البلد ، ووضعت المناديل على الرءوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه[3] » .

وكان الطلبة يحضرون كتبهم فى شىء يسمى قارورة ، ولعلها سميت بهذا الاسم من قبيل الفكاهة العلمية[4] .

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم[5] ، وكثيراً ما كان المتكلمون والنحويون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الإملاء خاصة ؛ فيُحكى أن الجبّائى المعتزلى أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة ، وما رؤى ينظر فى كتاب إلا يوما فى زيج الخوارزمى[6] . وقد أملى أبو على القالى خمس

---

(١) السبكى ج ٢ ص ١٧٠ ؛ والنووى نفس الإشارة .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٣٦ .

(٣) Wüstenfeld, AGGW, 87. Nr. 365 ، وانظر طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٤) الإرشاد ج ٢ ص ١٠ ؛ وأغلب الظن أن القارورة هى المحبرة كما يمكن أن يؤخذ من النص : « دخلت طالباً للحديث فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث ، وبيدى قارورة ، فرأيت شابا عليه سمة الجمال فاستأذنته فى كتب الحديث من قارورته » (المترجم) ، على أن المؤلف يقول إن كلمة قارورة تدل على ما يشبه الصندوق .

(٥) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ١٩٩ طبعة مصر ١٩٣٥ ، Goldziher, SWA, 69 S. 20

(٦) المعتزلة لابن المرتضى ص ٤٧ .

مجلدات[١] ، وكان المستملي يكتب أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » .

وفي القرن الرابع الهجري ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين في الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة ، والمدرس يشرح « كما يدرّس الإنسان المختصرات[٢] » . ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزجاجي المتوفى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م[٣] . أما إملاء الحديث فقد بقي كما صرح بذلك السيوطي . ولما عزم الوزير الصاحب ابن عباد (المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) على إملاء الحديث خرج متطيلسا متحنكا على زي أهل العلم ، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، وقد للإملاء لحضر الخلق الكثير ، « وكان المستملي الواحد يضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه[٤] » ؛ ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه حتى إن أغلب العلماء كانوا يختصرون في أماليهم ويطيلون في تدريسهم[٥] .

وعندنا من خبر كتاب الياقوت في اللغة لأبي عمرو المطرز (المتوفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتابُ من الإملاء : ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٧ م في جامع المنصور ببغداد ارتجالا من غير كتاب ولا دستور ، ومضى في الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره ؛ ثم رأى الزيادة فيه فزاد

---

(١) السيوطي في المزهر .
(٢) السبكي ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٣) المزهر للسيوطي .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٢ .
(٥) المنزلة لابن المرتضى ص ٦٣ ، ويظهر أنه في عصر حاجي خليفة كان المحدثون قد تركوا الإملاء نهائياً . انظر : Marçais, Le Taqrib de en-Nawawi, JA 1901, 18, S. 87 [وكتاب التقريب مطبوع بالعربية ومعروف — المترجم] .

فى أضعاف ما أملى ، وكتب هذه الزيادة أحدُ تلاميذه ؛ ثم قرأه عليه أبو إسحاق الطبرى وسمعه الناس ، ثم زاد فيه بعد ذلك ، وقرئ عليه بالزيادة يوم الثلاثاء الثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ؛ وفرغ منه فى ربيع الثانى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت ؛ ثم زاد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبى إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة[1] .

وكان تغيُّر طريقة التعليم سبباً فى إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ؛ ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، ولعل من أكبر الأسباب فى ذلك أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من محاظرة وجدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذى تحب مراعاته للمسجد ؛ فالقرن الرابع هو الذى أظهر هذه المعاهد الجديدة التى بقيت إلى أيامنا . ويدل مجموع الأخبار التى انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد ، وكانت أكبر مراكز العلم فى خراسان . ويقول الحاكم النيسابورى المؤرخ الثقة (المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م) صاحب تاريخ نيسابور إن أول مدرسة هى التى بُنيت لمعاصره أبى إسحاق الإسفراييني (المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م) بنيسابور[2] .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٧٦ .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ١١١ ، ١٣٧ ؛ ويقول المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٣٦٣) إن أول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية التى بنيت للبيهقى (المتوفى عام ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . ويقول الذهبى إن أول المدارس المدرسة النظامية (السبكى ج ٣ ص ١٣٧) ، ولا توجد كلمة مدرسة عند الجوهرى ولكنها وردت فى رسائل الهمذانى (ص ٢٤٧) .

أما المدرسة التي بنيت لابن فورك (المتوفى عام ٤٠٦ هـ) فهي أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل. وكان كل من الإسفراييني وابن فورك أشعرياً متحمساً، فلا بد أن يكونا قد آثرا البحث في المسائل الكلامية، بل آثرا طريقة التدريس على مجرد رواية الأحاديث[١]

على أنه كان بنيسابور رجل من كبار الأئمة وأولى الرياسة، وهو أبو بكر البستي المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره، ووقف عليها جملة من ماله الكثير. وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور[٢]

وكان المستملي في المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه. وكان العالم يبتدئ درسه بحمد الله والصلاة على نبيه بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين[٣]. وبعد أن يستنصت المستملي الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي؛ ثم يقول للمحدِّث: من أو ما ذكرت رحمك الله؟ - وكلما ورد ذكر النبي أو أحد الصحابة أو نحوهم[٤] صلى على النبي ورضي من

---

(١) ويريد الأستاذ ريبيرا (Ribera) في مقالة: Origen del Colegio Nidami de Bagdad، وهو بحث شيق ضمن Homenajo a Don Fr. Codera Zaragoza 1904, S. 3. ff. أن يثبت أن المدارس في أصلها من مؤسسات الكرامية؛ ولكن لا برهان له على ذلك.

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٣٣.

(٣) انظر الفصل الخاص بعلوم الدين.

(٤) Nawawi, Taqrib, trad. Marçais, JA, 1901, 18, S. 88. والطبعة العربية، النوع السابع والعشرون؛ وهذه كانت هي العادة الجارية في القرن الرابع كما يدل على ذلك ما روي من أن الخطيب البغدادي كان يأمر المستملي أن يرفع صوته بذلك

الصحابة . وفى حوالى عام ٣٠٠ هـ كان ابن كيسان النحوى يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات ، ثم بأحاديث الرسول عليه السلام ؛ « فإذا قرئ خبر غريب أو لفظة شاذة أبان عنها وتكلم عليها وسأل أصحابه عن معناها[١] » . وكان يجوز السامع فى المجلس أن يقف ويسأل المدرس ، ويدل على ذلك ما حكى عن أبى عبيدة اللغوى من أن رجلا حضر مجلسه فسأله سؤالا سخيفاً يدل على الجهل وسوء الفهم ؛ ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعياً فى مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حُشِرت البهائم علىَّ اليوم[٢] .

على أنه قد بقى فى القرن الرابع ذلك التهيب الشديد للحديث ، وقد كان معروفاً من قبل ، فكان يبلغ من ورع البعض أنه يتهيب رواية الحديث[٣] ؛ وقد حكى البرقانى (المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) أن أستاذه كان يروى الأحاديث متهيباً متحرزاً ، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلم مع أحد ، يذهبون جانباً ويكتبون الأحاديث التى ترد فى كلامه دون أن يفطن هو لذلك[٤] . وكان أبو سهل الصعلوكى يُطلب منه التحديث فيمتنع أشد الامتناع ؛ ولم يقعد لذلك إلا فى آخر عمره عند ما بلغ السبعين[٥] . على أن التحديث كان يعتبر نوعا من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة : فيستحب المحدث قبل أن يجلس للحديث أن

---

(١) الإرشاد ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر Goldziher, DMG, 1907, S. 861 ، وقد حكى السمرقندى (بستان العارفين ص ١٠) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه قال : أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان منهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ولا مفتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتوى .

(٤) انظر ما ذكره مارسيه فى هامش ترجمته لكتاب التقريب للنووى : JA, 1901, 17, S. 196 Anm. 2 .

(٥) الطبقات السبكى ج ٢ ص ١٦١ .

يتطهر ويتطيب ويسرح لحيته ، وأن يجلس متمكناً بوقار ، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره ، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم[1] .

ويروى لنا من القرنين الثانى والثالث للهجرة أنه كانت تُرمى رقاع فى حلقة بعض العلماء الصالحين أمام العالم ، وتتضمن هذه الرقعة طلبَ دعاء لمريض أو صاحب حاجة ، فيقبض العالم عليها ويقرؤها ، ويدعو لصاحبها ، ويؤمّن على دعائه من حضر ، ثم يمضى فى درسه[2] .

وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية : لما عزم الصاحب ابن عباد على إملاء الحديث ؛ وهو وزير ، « خرج يوماً متطلِّساً متحنِّكاً بزى أهل العلم فقال : قد علمتم قدمى فى العلم ، فأقروا له بذلك ، وأنا متلبّس بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغرى إلى وقتى هذا من مال أبى وجدى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أنى تائب إلى الله من ذنب أذنبته ؛ واتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة ، ولبث أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستة ، كل يبلغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضى عبد الجبار[3] »

وكان أبو الحسن الدارقطنى (المتوفى عام هـ — ٩٩٥ م) يقرأ عليه

(١) التقريب للنووى ترجمة مارسيه .Marçais JA, 1901, 18, S. 85 f (النوع السابع والعشرون من الطبعة العربية) ، ويذكر مارسيه عن الغزالى أن سفيان الثورى كان يُجلس الفقراء فى الصف الأول .

(٢) الإرشاد لياقوت ، ج ٦ ص ٢٨٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٨٥ وما يليها .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣١٢ .

تلاميذه ، فإذا أخطأ أحدهم سبّح أو قرأ شيئا من القرآن بقصد التصحيح ، من الآيات التى تكون ملائمة لذلك[١] . وتوفى أحد العلماء فى سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م . وكان يبتدئ كل يوم بتدريس القرآن ، ثم يدرس الحديث ، وكان يجلس على حال واحد لا يتحرك ولا يعبث فى شىء من أعضائه ، ولا يغير شيئاً من هيئته ؛ وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفد قوته ويبلغ النهاية فى جهده فى القراءة[٢] .

وكان أبو الحسن الباهلى يدرس فى كل جمعة مرة واحدة ، وكان يرخى الستر بينه و بين تلاميذه كى لا يروه ، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه و بين الناس فأجاب : إنهم يرون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فيروننى بالعين التى يرون بها أولئك ؛ « وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل والهٍ أو مجنون ، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره[٣] . وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول : قوموا ؛ فيقوم تلاميذه ، ويأخذ هو يدعو الله[٤] .

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان فى سماع الحديث ؛ فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يبتدئ الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ؛ وقال آخرون بعد العشرين ؛ ونقل القاضى عياض ، قاضى قرطبة (المتوفى عام ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م) أن مذهب المحدثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين ؛ ويُذكر حديثٌ للبخارى (كتاب العلم ، الباب الثامن عشر) لإثبات هذا الرأى . و يقول النووى (المتوفى عام ٤٧٦ هـ — ١٠٨٣ م) إن العمل استقر

---

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٣١٢ .
(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٣ ؛ .
(٣) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٤) نفس المصدر ص ١٩٢ .

على ذلك فى زمانه . ويُحكى أن الحميدى المحدّث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه[١] إلى مجلس الحديث ؛ ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن الذى بدأ هذه كل محدّث فى سماع الحديث . وكان يندر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو فى السادسة من العمر ويقال إن القاضى التنوخى المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، ممن سمع الحديث وهو فى سن ست[٢] . ويقال إن أبا نعيم الأصفهانى أكبر محدّثى عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان[٣] . والغالب أن يُبدأ فى سماع الحديث فى الحادية عشرة ، وفى هذا السن سمع الحديثَ الخطيبُ البغدادى المحدّث المشهور وثلاثة من شيوخه[٤] ؛ وكذلك ابن الجوزى ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة[٥] . وكان بعض المحدثين لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحياً ، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر . ويُذكر أن صبيا كان شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومُنع من ذلك فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة[٦] .

وقد اختُلف أيضا فى السن التى يجوز فيها للرجل أن يتصدى لتدريس الحديث ؛ فذهب النووى إلى انه يجوز للإنسان أن يجلس لذلك فى أى سن متى احتيج إلى ما عنده ؛ ويجب على الشيخ المسن أن يمسك عن التحديث ، إذا خشى التخليط بهرم أو خرف أو عمى[٧] .

---

(١) التقريب للنووى ترجمة مارسيه . انظر Marçais, JA. 1901, 17, 193 ؛ والنسخة العربية : النوع الرابع والعشرون .

(٢) المنتظم ص ١٣٦ ب .

(٣) السبكى ج ٣ ص ٨ .

(٤) تاريخ بغداد JRAS, 1912, S. 60. .

(٥) المنتظم ص ١٣٧ ب .

(٦) Wüstenfeld Schafliten, AOOW 37, Nr. 88 ، انظر أيضا الفصل الخاص بالأخلاق والعادات فى الجزء الثانى من الكتاب .

(٧) التقريب للنووى ترجمة مارسيه JA, 1901, 18, S. 84. ، [والنسخة العربية : =

وكان الأسفراينى أكبر أئمة الشافعية فى القرن الرابع الهجرى ، طالباً فقيراً ، وكان يشتغل حمّالا[(١)]. وكان آخرون فى وقت طلبهم الحديث يسكنون فى مئذنة المسجد الذى يستمعون فيه الحديث[(٢)]. ويحكى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م) أنه كان يطلق للشعراء فى كل سنة من سنى وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقا ، وعند مديحهم إياه ؛ فلما كان فى وزارته الأخيرة تذكّر طلاب الحديث ، وقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونه ويصرف ذلك فى ثمن ورق وحبر ، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم ، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم[(٣)].

يدلنا هذا على أن المعاهد العلمية التى كان يستطيع الطلاب أن يلجأوا إليها لم تكن قد ظهرت ، وكان جزء كبير من مثل هذه العطايا لا يُصرف إلى الطلاب ، بل لغيرهم بواسطة ذوى الجاه ، كما يصرح بها صاحب كتاب الوزراء . وكان العالم إذا لم يكن فقيها صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب كما حُكى عن أبى زكريا يحيى بن عدىّ المتوفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م ، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين ؛ وذُكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبرى ، وأنه كان يكتب فى اليوم والليلة

= آداب المحدّث ، فى النوع السابع والعشرين] . وقد كان المحدّثون المتأخرون قساةً فى حكمهم على العمى من المحدثين ؛ فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة فى أمر الحديث ، وهذا يدل على ما أصبح للكتابة من الشأن وعلى نقصان قيمة الذاكرة وما كان لها من التقدير فيما مضى . وقد قال الخطيب البغدادى إن الأعمى فى منزلة البصير الأمى — نفس المصدر ص ٦٣ ، [والنوع السادس والعشرون] .

(١) AOGW, 37, Nr. 287 ، وفى طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٦ أنه كان فى أول أمره يحرس فى بعض الدور .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

مائة ورقة[1] . وكان بنيسابور ورّاق يسمى أبا حاتم ورّق بها خمسين سنة ، وهو القائل :

إنّ الوراقة حرفة مذمومة محرومة عيشى بها زمنُ
إنْ عِشْتُ عشتُ وليس لى أكل أو مُتُّ مُتُّ وليس لى كفن[2]

وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى عام ٤٣٩ هـ - ١٠٨٦ م يعول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقة ؛ وفى سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات ، وهو يقول : « فلما كان ليلة من الليالى رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت ، ومنادٍ ينادى ابن الخاضبة ، فأحضرت ، فقيل لى : أدخل الجنة ؛ فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاى ووضعت إحدى رجلىّ على الأخرى وقلت : آه استرحت والله من النسخ »[3] .

وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الورّاقين . وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا[4] .

ولم تكن حرفة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً ؛ فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن يتخذ العلم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث[5] ، وأجاز ذلك آخرون ؛ ولكنهم جعلوا معلم الحديث فى درجة أعلى لأنه يعلّم ابتغاء الثواب الأخروى . وفى القرن الثامن

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤ ؛ وأخبار الحكماء للقفطى ص ٣٦١ من الطبعة الأوروبية .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٩ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٣٧ .

(٤) يذكر هذا كثيراً ولا سيما فى تراجم المالكية .

(٥) انظر مقدمة بستان العارفين للسمرقندى ، والتقريب للنووى Marçais, JA, 1901, 17, S. 143 ، وانظر أيضاً بستان العارفين ص ٤٤ — ٤٥ .

الهجرى امتنع النورى أن يأخذ رزقاً لتدريسه فى المدرسة الاشرفية ؛ وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم قعد له من غير أجر ، قال له الطالب : آجرك الله ، وهو يقول : نفعك الله[1] . وفى سنة ٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م توفى أبو العباس الأصمّ ، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ؛ وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار ، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإنما كان يرزق ويأكل من كسب يده[2] . وحُكى عن أبى بكر الجوزقى محدّث نيسابور المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م أنه قال : « أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهما[3] . وكان أبو بكر الخطيب البغدادى يوماً فى جامع صور ، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثمائة دينار وضعها على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمرّ الوجه ، وأخذ السجادة وخرج من المسجد ، وترك العلوى يلتقط الدنانير من شقوق الحصير[4] .

أما إذا كان أحدٌ معلم صبيان أو معلم كتاب ، كما كان أبو زيد البلخى العالم المشهور المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م[5] ، فعنى هذا عيش مرّ وحرفة محتقرة . وقد ألف الجاحظ كتاباً فى المعلمين ملأه بالحكايات التى تدل على حماقاتهم وقلة عقلهم ورأيهم . ومن أمثال العامة : أحمق من معلم[6] . ولعل كثيرا مما لحق

---

(١) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٨٧ ا
(٣) السبكى ج ٢ ص ١٦٩ .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٤ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ .
(٦) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٠٠ طبعة مصر ١٣١١ هـ .

المعلمين من ضروب الاستهزاء إنما يقع إثمهُ على الروايات اليونانية الهزلية ؛ لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة . وقد ذكر ابن قتيبة عن السندى أنه كان لا يستحلف المُكارى ولا الحائك ولا الملاّح ، ويجعل القول قول المدعى مع يمينه ، ويقول : اللهم إنى أستخيرك فى الحمّال ومعلم الصبيان[1] . وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) يقول إذا قلت للرجل : ما صناعتك ؟ فقال : معلم ، فاصفعه[2] . . يحكى ابن حوقل عن أهل صقلية أنهم كانوا يكثرون التغذى بالبصل النيءْ ، « وما فيهم من لا يأكله فى كل يوم ، ويؤكل فى داره صباحاً ومساء من سائر طبقاتهم ، وهو الذى أفسد تخيُّلهم ، وضر أدمغتهم ، وحيّر حواسهم ، وغير عقولهم ، ونقص أفهامهم ، وأفسد سحنة وجوههم ، فأحال مزاجهم ، حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على غير ما هى عليه . والذى دخل تحت العدة أن فيها أزيد من ثلثمائة معلم يؤدبون الصبيان ؛ وهم يرون أنهم أفضلهم ، وأنهم أهل الله ، وهم شهودهم وأمناؤهم ؛ هـذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة أدمغتهم ؛ وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب[3] » . وكان يُدفع للمعلم أجره أحياناً عدا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به ، ولذلك كانت « رغفانُ المعلم » مثلا يُضرب فى الاختلاف وشدة التفاوت ، لأن رغفان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان فى الغنى والفقر ، والجود والبخل . وقد أنشد الجاحظ الرقاشى فى معلم :

مختلف الخبز خفيف الرغيف   منتثر الزاد لشـيم الوصيف

(١) عيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٩٣ .
(٢) الإرشاد ج ٦ ص ٤٧٣ .
(٣) ابن حوقل ص ٨٦ — ٨٧ .

وأنشد لأبي الشمقمق :

خبز المعلم والبقال متفق والون مختلف والطعم والصور

أما المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنية فكانوا أحسن حالا ؛ يقول الجاحظ[1] : « يكون الرجل نحويا عروضيا ... وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما ؛ ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم[2] » ، وكان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه في الشهر سبعون دينارا ، وذلك في القرن الثالث الهجري . وكان مثل هذا المعلم يظل تحت إشراف من اختاره ، وهو الذي يقدّر رزقه ، ويطوف عليه ويتعهد من بين يديه من الصبيان ؛ وهو يصرفه ويبدّل به غيره إذا لم يعجبه[3] . وكان مؤدّبو الأمراء أحسن المؤدبين حالا ، وكان الذين يُختارون لتأديب أبناء الأمراء هم علماء اللغة المشهورون ؛ فمن ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر ، وكان من أجود أمراء زمانه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمدَ بن يحيى ثعلب النحوى اللغوى إمام الكوفيين ، فأفرد له دارا في داره كان يقيم فيها هو وتلميذه ، وكان يتغدى معه ؛ وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السميد وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة

---

(١) محمد المنسوب للثعالبي ZDMG, VI, ؛ وثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ وكان يوم الثلاثاء ويوم الجمعة يوم عطلة مدرسية (انظر ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣ ، ومقدمة متز لكتاب حكاية أبي القاسم الأزدي ص ٥٧ ، وفيما يختص بالعصور المتأخرة (انظر كتاب ألف باء ج ١ ص ٢٠٨ ، والمدخل ج ٢ ص ١٦٨) ؛ وكان الصبيان يكتبون على ألواحهم بالطباشير (مقدسي ص ٤٤٠ ؟) ، وكان المعلم يؤدبهم بأن يضربهم بالسير (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣) .

(٢) البيان للجاحظ ج ١ ص ١٠١ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٢ .

رأس ، وأجرى له فى الشهر ألف درهم[١] .

وفى سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقانى بدخول ابنه الكُتّاب ، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفسا ، وأمر الداعى بإعطاء المعلم ألف دينار ؛ وأكرم الناس ، وأكلوا[٢] ؛ وكان يلازم المأمون فى الكتاب غلامٌ لمعلمه ، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه ، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلمان المأمون فمحه وجاء به فوضعه على المنديل فى حجره[٣] .

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقا من السلطان ، وكانوا فريقين : فقهاء وعلماء ؛ وثَمّ فريق ثالث أكثر رزقا ، وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة ؛ وكان البعض يأخذ رزقا فى هذه الطوائف كلها كالزجّاج المتوفى عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق فى الندماء ، ورزق فى الفقهاء ، ورزق فى العلماء ، ومبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، وكانت له منزلة عظيمة[٤] . وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين ديناراً فى كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً[٥] . وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبى نصر الفارابى الفيلسوف التركى المتوفى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م أربعة دراهم كل يوم ، فاقتصر عليها[٦] .

ويندر أن نجد فى هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يعيش منها

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ٧٩ ب .

(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى الطبعة الأوروبية ص ٦٢٠ .

(٤) الفهرست ص ٦١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW. 37, Nr. 92 .

(٦) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٣٩ هـ (ج ٢ ص ٤٠٨) .

إلى جانب العلم فيُحكى أن أبا بكر الصبغى المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م كان يبيع الصبغ بنفسه أو به له بنفسه فى الحانوت على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسببون فى المعاش ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين[١] . وقد أوصى الصبغى لأحد العلماء فى أمور مدرسته « دار السنة » ، وفوّض إليه تولية أوقافه فى ذلك[٢] . وكان دعلج بن أحمد بن دعلج بن محمد السجزى (المتوفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) شيخ أهل الحديث ، وكان فقيهاً ، ويقال إنه لم يكن فى الدنيا من التجار أيسر منه ؛ وقد خلّف ثمانمائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه بعث بالمسند إلى رجل لينظر فيه ، وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً ؛ « وكان يقول : ليس فى الدنيا مثل دارى ، لأنه ليس فى الدنيا مثل بغداد ، ولا ببغداد مثل القطيعة ، ولا بالقطيعة مثل درب أبى خلف ، ولا فى الدرب مثل دارى »[٣] . وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الدبيلى الخياط المتوفى عام ٣٧٣ هـ ، وكان فقيها جيد المعرفة على مذهب الشافعى ، وكان قوته وكسبه من خياطته ، كان يخيط قميصا فى جمعة بدرهم ودانقين ، طعامه وكسوته منها غلاء ورخصاً ، « وما ارتفق من أحد بمصر بشربة ماء »[٤] . وكان بمصر عالم آخر توفى عام ٤٩٢ هـ — ١١٠٩ م ، وكان يبيع الخلع لأولاد الملوك[٥] . على أننا نجد أن أبا عمر المطرّز المتوفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م ، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين ، قد منعه

---

(١) السبكى ج ٢ ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٦ .
(٣) السبكى ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢ .
(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٧ .

اشتغاله بالعلوم عن اكتساب الرزق ، فلم يزل مضيقا عليه[1] . ويقول أحمد بن فارس اللغوى المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م :

إذا كنت فى حاجة مرسلا   وأنت بها كَلِفٌ مغـرمُ
فأرسل حكيما ولا توصه   وذاك الحكيم هو الدرهمُ

وكان يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجّهة   وأن حظى منها فلس فلاسِ
قالوا : فما لك منها ؟ قلت : تخدمنى   لها ومن أجلها الحمق من الناسِ[2]

وأخيراً دخل علماء الإسلام فى نهاية هذا العصر فى جملة العظماء وأصحاب الألقاب ، وكان الأسفراينى الأصغر المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م بنيسابور أول من لقب بين العلماء بركن الدين[3] . وفى ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذى صار له شأن كبير فيما بعد ، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين ، وذلك أن أهل السنّة فى خراسان لقّبوا به أحد علمائهم ، فثارت نفوس المجسّمة بمدينة هرات وعمدوا إلى شيخ لهم ألف كتاباً فى ذم الكلام فلقّبوه به[4] .

---

(١) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٤٥ هـ (ج ٢ ص ٤٦٤) .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٩ .

(٣) Wüstenfeld, AGGw, 37, Nr. 316 ، وكان أحمد بن عبد الله أبو محمد المزنى المغفلى الهروى المتوفى عام ٣٦٥ هـ — ٩٦٦ م إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان بخراسان فى عصره مع رتبة الوزارة وعلو القدر عند السلطان ، وكان يقال له الشيخ الجليل ببخارى . وكان فوق الوزراء لعظمه ، وكانوا يصدرون عن رأيه ، (طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٥ — ٨٦) .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٤٧ ، ١١٧ .

ولم يكن يخلو الحال من شخصيات مضحكة بين المعلمين كالتي نجدها في المجلات الهزلية فقد كان بين المبرّد وثعلب منافراتٌ كثيرة ، والناس يختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه ، وكان يسعى بينهما السعاة ، وينقلون لأحدهما هجاء الآخر ؛ وكانا يتناظران[1] . ويُحكى أن قتادة السدوسي قال مرة : ما نسيت شيئا قط ؛ ثم قال : يا غلام ! ناولني نعلي ، قال : نعلك في رجلك[2] .

وكان ابن خالويه اللغوي عالما غليظا ، فيحكى أنه وقع بينه وبين المتنبي كلامٌ في مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه ؛ فخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه[3] . وكان نفطويه مشهوراً بعلمه كما كان مشهوراً بالقذارة والصنان ونتن الرائحة ؛ وقد أثرت في عقل الجوهري صاحب المعجم المشهور (المتوفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م) كثرةُ عمله ، فقد صنّف كتاب الصحاح في اللغة حتى وصل إلى باب الضاد ؛ ثم اعتراه وسوسةٌ فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور ، فصعد إلى سطحه ، وقال : أيها الناس ! إني عملت في الدنيا شيئا لم أسبق إليه ؛ فأعمل للآخرة شيئا لم أسبق إليه ، وضمّ إلى جنبيه مِصراعَيْ باب وتأبّطهما بحبل ، وصعد مكاناً عاليا من الجامع وزعم أنه يطير ، فوقع فمات .

---

(١) الإرشاد ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن خلكان (الوفيات) طبعة فستنفلد ج ١ ص ٦٥ .